

تأملات في قراءات نقدية حديثة للتراث

د. مجيد قري. جامعة برج بوعريوحيج/ الجزائر

تنازع التراث العربي اتجاهات نقدية سياقية وأخرى نسقية، حاولت جميعها قراءة المدونات التراثية ومحاورتها، وللخصوصية الأدب العربي الإبداعية وطابعه الإنساني حظي الشعر العربي — على وجه التحديد — بقراءات كثيرة، اشتغل بعضها بالنص التراثي باعتباره بنية لغوية ترتبط بها مستويات وأنساق وقوالب، فاستعانت في ذلك بالإحصاء والتسبب والأرقام والمنحنيات وحاولت تجاوز ما يحيط بالنص والاكتفاء بدراسة النص من الداخل، واعتبار الأدب نظاما في حد ذاته، ودراسته تقتضي الاكتفاء بدراسة أدبيته وشعريته بمعزل عن كل مؤثر خارجي أو أيديولوجي⁽¹⁾ وكانت إسهامات "صلاح فضل" و"عبد المالك مرتاض" و"عمر الربيعي" .. وغيرهم ممن اشتغلوا بالبنية منارات لقراءات عديدة اشتغلت بالتراث وحاولت قراءته في ضوء المناهج النقدية التي اهتمت بالنسق.

وإن نجح بعضها في إضفاء بعض العلمية أثناء دراسة المستويات المختلفة للنصوص التراثية إلا أن بعضها حوّل بعض الدراسات المرتبطة بالتراث إلى شبه حقل للبحث العلمي الدقيق منطلقا من نظريات غريبة محضة اشتغلت بالبنية أو بتحميل العلماء العرب القدامي اللغويين والبلاغيين عبئا ربّما لم تحتمله مؤلفاتهم التراثية في كثير من المواضع.

فراح بعضهم مثلا يتحدث عن بنيوية "عبد القاهر الجرجاني" وفكرة الأبعاد والبدال عند "ابن جني" والمقاربة بين "ابن قتيبة" وسوسير⁽²⁾، ثم يأتون بمدونات شعرية تراثية ويحاولون تجزئتها إلى أجزاء عضوية مشكّلة لنظام النص، يقومون بقراءة النص من خلال تحليل مستوياته وتراكيبه الفنية، ويصدرون أحكاما انطلاقا من معايير

أعدت سلفا في بيئات بعيدة عتًا، لكن بعضها قد يكون أداة إجرائية ومفاتيح يتم تسخيرها للولوج لعالم النص الشعري التراثي وفك بعض شيفرته التي لم يتم تفكيكها جميعها رغم تظافر جهود النقاد عبر العصور انطلاقا من فكرة أن النص مفتوح لقراءات متعددة، وكل قراءة جديدة إضاءة لعنمة وعتبة من عتبات النص يشكل إضافة ثانية لفهم النص لأنه لا شيء نهائي في الفن.

الاتجاهات السياقية التي اشتغلت بدورها بالسياقات المحيطة والمرتبطة بالنص كان لها الحظ الأوفر في تلقي النص التراثي ومحاولة قراءته، ومحاولة ربطه ببيئته أو تاريخه أو صاحبه ونفسية مبدعه. و"النويهي" و"العقاد" و"طه حسين" و"المازني" .. وغيرهم اطلعوا على التراث العربي الشعري، وثنوها بفقه كثير من خلاصات بعض المناهج الوافدة من الغرب وتطبيقاتها، فمارسوا إسقاطات على التراث العربي بالاستفادة من تجارب ودراسات تناولت عيون الأدب الغربي والتراث العالمي الإنساني العام قديمه وحديثه، فانبروا ودرسوا التراث الشعري العربي القديم ومقاماته، وكان حظّ "المتني" ، و"أبي نواس"، و"ابن الرومي" وشعراء الصعاليك والمعلقات وشعر الغزل .. وغيرها محطات أبرز النقاد من خلال قراءاتهم النقدية التي لها سياقاتها المختلفة المرتبطة بالنص، فحلّلوا البيئة وتحدّثوا عن توجيه بعض الظواهر الاجتماعية لمسيرة الإبداع ودراسة الارتسامات التي قد تبدو بين ثنايا النصوص، كما لم يغفلوا عن دراسة المتون بالاستعانة بالمنهج النفسي وخلاصات علم النفس، ولم يهمل بعضهم كذلك التعامل مع التاريخ ودراسة الأدب في ضوءه، ولكن بقدر ما حاولت هذه القراءات إضاءة جوانب مظلمة محيطة بالنص بقدر ما حجّمت الاهتمام بأدبية الأعمال الأدبية وأساليبها، وجعلت النص وثيقة تاريخية أو اجتماعية أو نفسية وأنستنا تلك القراءات أو تكاد أن (الخطاب الأدبي صوغ للغة عن وعي وإدراك، إذ ليست اللغة فيه مجرد قناة عبور الدلالات، وإنما هي غاية تستوقفنا لذاتها)⁽³⁾

إذن تنازعت الرؤيتان السياقية والنسقية وحاولتا احتضان النص التراثي فجاءت دراسات وقراءات نقدية كثيرة سعت جميعها لدراسة المتون الشعرية التراثية وسعت لتقدم إضافات أسهمت في تقديم التراث في حلّة جديدة بفضل القراءات النقدية الجديدة التي تناولته بالدرس. ولعلّ فكرة البحث ستسهم بما ستبرزه من تأملات في بعض القراءات المنتقاة حول التراث و ستقتفي هذا التوجّه الذي توجهه النقد الحديث ودرس من خلاله المتن التراثي.

والهدف ليس استقصاء وتتبع جميع ما قام به النقاد من قراءات حيال التراث بقدر ما هو رؤية مستبصرة في ما تمّ من جهد لإمالة اللثام عن الميراث الشعري الضخم الذي أبدعته ذوات مبدعة تستحق منا التعريف بها وحسن قراءتها والاجتهاد في إيصال المعاني المتوخاة منها.

وإذ اخترنا مصطلح الحديث ونأينا عن استخدام المعاصر ففيه التأسّي بالقول النقدي الذي يعتبر الحديث ممتدا في الزمن منذ حملة نابليون بونابرت إلى يومنا الحاضر، بينما المعاصر يمثل جيلا أدبيا ، فوق الاختيار على الحديث الذي ينوب في محطة من محطات الزمن عن المعاصر.

طه حسين من أوائل الأوائل الذين اشتغلوا على التراث وحاول قراءته قراءة علمية وفق المناهج الحديثة رغم ما أثير حول الرجل من الاختلاف الكبير؛ فمنهم من رأى فيه مفكرا عبقريا كسر القيود التي أحاطت به علميا واجتماعيا ومنهم من نعتة بالشريد الذاهية الذي حاول بمكر ودهاء تدمير القيم الأصيلة التي تقوم عليها الثقافة العربية، ونعوت كثيرة. لكن يكاد الكثير يتفق أنّه صاحب رؤية حضارية معيّنة، وصاحب فكرة التأسيس لمنهج في النقد تناول الأدب العربي قديمه وحديثه⁽⁴⁾ وأصبح له مريدين وتلامذة وجيلا آخر لتلامذته لا زال يحسن العطاء ويقرّ لطله حسين بالفضل. عشق التراث القديم ، وحاول معاشته معيشة وجدانية مميزة. ازدادت خصوبة التعامل مع التراث عنده بعد انتقاله إلى فرنسا وانفتاحه أكثر على التراث

الإنساني العالمي. وقد ساعدته ما امتاز به من جرأة عقلية وذكاء في تحليل الأحداث والمواقف، وتناول التراث الأدبي عموماً، والشعري على وجه أخص. وحاول تطبيق المنهج العلمي في الدراسة، وقال نحن في ذلك (بحاجة إلى المنهج القلم لنقوي في أنفسنا ملكة الإنشاء وفهم الآثار العربية، وفي حاجة إلى المنهج الحديث لتحسين استنباط التاريخ الأدبي من هذه الآثار)⁽⁵⁾.

قرأ طه حسين الشعر الجاهلي وأبا العلاء "تجديد ذكرى أبي العلاء" ودرس شعراء الغزل في الحجاز وبعض الشعراء العباسيين... وكثير من القضايا التي طرحها فيها ليست جديدة على النقد العربي (كقضية الانتحال التي عرضها في الشعر الجاهلي، ونفى على أساسها كثيراً من شعر الجاهليين وشك في كثير)⁽⁶⁾ وكان في طرحه متأثر بأستاذه المستشرق "مارجليوت". استفاد من مطالعته الكثيرة في شتى جوانب المعرفة، فراح يدرس الظواهر الأدبية في ضوء الجوانب السياسية والحضارية والتاريخية وأيضاً لا شك (أن مجمل ما ذهب إليه طه حسين في دراساته اعتمد على مذهبه القائم على المقياس الأدبي الذي يجمع بين الأدب والفن وإن اسقط في دراساته التجريبية الحاجز القائم بين التاريخ والنقد والفن فمرّد ذلك إلى اتساع مفهومه للتاريخ الأدبي، فلم يكن يفرق بين ما هو نقد وما هو تاريخ)⁽⁷⁾.

تعامل طه حسين مع التراث، وكانت آراءه جرئة حوله، ونال منه النقد ما نال لكنّه آمن دوماً (بحرية الأديب في تناول موضوعه دون خضوع لأي قيد مهما كان ذلك القيد اجتماعياً كان أو سياسياً أو دينياً أو أخلاقياً .. وكان لهذا المنهج العقلي الذي اخططه أداة لتخليص الأدب القديم من شوائبه وإعادة تقييمه ودراسته على أسس علمية ومناهج قوية)⁽⁸⁾. وذلك كلّه أسهم في تمكين الناقد من الابتكار والتجديد ونفع الناس.

حاول طه حسين — وهو يدرس التراث — الاستفادة من تجارب الناقد "تين" و "سانت بييف" واستعان بعناصر البيئة والمجتمع والجنس والثقافة، وحاول دراسة الأدب

دراسة علمية. درسها كما تدرس الظواهر العلمية والاجتماعية. ولكن نقده اتسم بالاستناد إلى الذوق الخاص والسقوط في التعميمات لأنه كان يسقط على النصوص المواقف الجاهزة المختلفة المرتبطة بالمؤثرات الخارجية التي تحيط بالنص، وغالى في تحليل جوانب لها علاقة بشخصية الأديب، الذوق وصدق التعبير عن الحياة والوحدة الفنية⁽⁹⁾ مما وجه الدراسة وجهة بعيدة أحيانا عن ذوق النقد والإدراك الجيد والملم لكثير من جماليات النص.

ولكن تبقى بصمة طه حسين مع التراث رغم ما أحيط بها من جدل بصمة لا يححوها قول أو جحد، ونجد أثر ذلك في مؤلفات تلامذته الذين جاءوا بعده، وتلامذة تلامذته الذين مشوا على درب منهجه وحاولوا تقديم إضافات خاصة بهم، فلا أحد يستطيع نفي تأثير مصطفى ناصف بالدعوة التي أطلقها أستاذة، مما حدا بالتلميذ أيضا إلى الدعوة ثانية إلى إعادة قراءة تراثنا وصياغته صياغة جديدة والاستفادة من الدراسات المتطورة في ذلك وتغيير عاداتنا في القراءة وتجاوز المسلمات المتعارف عليها لدينا حول التراث والسير قدما قصد التنقيب والتحليل والتفسير والتأويل في الخطابات الشعرية التي تستدعي التأويل⁽¹⁰⁾.

وأیضا لا أحد يستطيع نكران دور يوسف خليف، شوقي ضيف، وسهير القلماوي وغيرهم. ولا أحد يستطيع نفي شهادة الناقد جابر عصفور في كتابه "غواية التراث" عندما قال : (وأعترف أنني تلميذ صغير في مدرسة طه حسين التي لا يخلو واحد من المنتسبين إليها من غواية التراث الأدبي الذي اقتحمته ولازمته، فانغوى بهذا التراث قراءة ودرسا، شرحا وتأويلا، تعميما وتخصيصا)⁽¹¹⁾ فراح كأساتذته مصطفى ناصف والقلماوي وغيرهما يعنون بالنص التراثي وقراءته بالاعتماد على التفسير والتأويل ودراسة النص في إطار العلاقات المتبادلة بين القارئ والمقروء .

شيخ النقد "محمد مندور" كما يحلو للعقاد وآخرين تسميته كانت له قصة مع التراث العربي النقدي منه والأدبي، وكان حظ الشعر وافرا في ذلك، ولم يخف

"مندور" قبل انتقاله إلى فرنسا تأثره بأستاذه طه حسين، وسعيه الحصول على ذات الصبر الذي كان لأستاذه للتعامل مع النصوص العربية التراثية ومحاولة فهمها، لكن ما لبثت الخلافات والخصومات تتوالى بين الرجلين، وقد وجدت حقلها النقدي الخصب خاصة بعد إصدار طه حسين لكتابه حول أبي العلاء وتناول محمد مندور وآخرين له بالنقد. ساعدت موهبة مندور الفطرية وكذا اشتغاله بكل ما هو تراثي نقدي على تأليف عديد من الكتب النقدية : فن الشعر، النقد المنهجي عند العرب، في الميزان الجديد... وغيرها، تناول التراث الأدبي والنقدي بالدراسة وزادته مطالعته للتراث الإنساني والعالمي والثقافة الاجتماعية والعلمية خبرة ودراية على تناول المادة التراثية بكثير من التحليل والتدقيق الموضوعيين.

وإذا كان مندور في نقده لا يخفي حرصه على التركيز على السياقات الاجتماعية المختلفة لإدراك المضامين الفنية والدلالات النصية إلا أنه في المقابل يهتم بالأساليب وبناء اللغة، ويؤكد أن (الإحساس باللغة — مفردات كانت أم جملا — مسألة جوهرية، فلكل لفظة لون عاطفي وحتى للألفاظ التي تعبّر عن معاني عقلية لا بد من أن نعطيها شيئا من حرارة العقل)⁽¹²⁾. ويعتبر اللغة وسيلة أحيانا، وغاية عند آخرين، والكاتب أو الشاعر الفطن هو من يتنبه ويفطن إلى هذه الحقيقة.

يهتم محمد مندور كثيرا في قراءاته النقدية بجماليات النص، والمدقق في آرائه النقدية المتناثرة بين دفات كتبه يدرك أنه دائم الثورة على أنصار التقليد وعبدة البديع، ولكنه في المقابل يستحسن الشكل العميق الذي يجمع بين الشكل والجمالية لأن ذلك يجعل الأدب أكثر التصاقا بالقلوب .

قراءاته لكثير من المتون الشعرية التراثية القديمة جعلته يطلق حكما — يراه الكثيرون — قاسيا على الشعر القديم، ويرى أنه شعر قشور وطلاء، لأن الشاعر يضع المعنى في المقام الثاني بعد الشكل ومهرجة النص ، ويرى أن الفترة الأموية هي الأقرب إلى الشعر الحقيقي الصادر عن الطبع والسليقة، ويضع الفترة العباسية في مرتبة أقل

من العصرين الجاهلي والأموي، على خلاف أستاذه طه حسين الذي شكك في الأول، ووقف موقفاً منحازاً للعصر العباسي.

مندور في قراءاته للتراث يدعو إلى التعامل معه تعاملًا جمالياً. تأثر بالموضوعية المشفوعة بالأدلة والحجج، وهو يدرس هذا التراث ويقرأه. ووصل إلى قناعة أن في تاريخ الأدب العربي (ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه، وهو صدور القديم عن طبع وحياء، وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن⁽¹³⁾). ومشهود لمندور إدراكه الجيد للتراث النقدي وبراعته في مقارباته العلمية وقراءاته الجديدة والجديدة التي حاول بها اكتشاف التراث الأدبي والنقدي في ضوء الدراسات الحديثة. ولكنه حتى مع مرور الزمن ونضج تجاربه النقدية في مراحلها الحياتية اللاحقة وتأثره بالإيديولوجية إلا أنه بقي متشبهاً بمبادئ النقد الجمالي وحاول إرساء دعائمه. فقد كان الشعر هو الجنس الأكثر تواجداً وإلحاحاً في دراساته النقدية لأنه طالما كان الأصلح للمعالجة النقدية لروعة الاقتراب منه ومتعة الاشتغال به منذ القديم خاصة مع الآمدي والجرجاني وغيرهما من الذين لم يخف محمد مندور شدة الإعجاب بهما، وقد وضّح ذلك وأبرزه في أكثر من مقام في كتابه النقدي الفخم (النقد المنهجي عند العرب).

وإذا كان طه حسين في قراءاته للتراث لا يخفي الطريقة العربية القديمة في التعامل مع النص التراثي والقائمة أساساً على قراءة النص وفهمه وشرحه بالتركيز على تحليل النص تحليلاً لغوياً وكذا الاستعانة بتحليل النص من وجهة فنية انطلاقاً من المناهج الحديثة وخلاصات بعض العلوم — إذا كان ذلك هو حال طه حسين مع التراث — فإن تلامذته الذين جاءوا بعده حاولوا الاستفادة من بعض حسنات هذا المنهج، وربما كان تلميذه د/يوسف خليف من أشد الأوفياء لذلك المنهج، وقد تمنى لو واصل أستاذه في دراسته الأدب العربي كله وفق المنهج الذي طالما رآه أستاذه جديداً. وخليف يضيف أن طه حسين في قراءاته للتراث وفق في اختيار المنهج، ولكن

جانبه التوفيق أحيانا في انتقاء بعض الشخصيات ؛ فهو عندما درس المتنبي مثلا ظلمه وقسا عليه، ولكن حبّه لأبي العلاء جعله يبالغ في إنصافه. وولع التلميذ بأستاذه ومنهجه لم يمنعه من نقده في كثير من الآراء المرتبطة بالشعر الجاهلي أيضا، وأعاب عليه كذلك مقالاته وتطرفه عندما تبني الشك وشكك — كما فعل أستاذه المستشرق مارجيليوت — في الشعر الجاهلي وأثار قضية الانتحال.

عرف عن يوسف خليف كما تنقله عنه ابنته د/مي يوسف خليف عشقه الشديد للتراث ودعوة لعدم الانفصال عنه وكذا عدم الذوبان أو الفناء فيه بعيدا عن حياتنا المعاصرة، وطالما دعا إلى إحيائه وتحقيقه ونشره وتقديمه للباحثين المتخصصين فيه دون نسيان حظ غير المتخصصين ومحاولة إشراكهم في الانسجام والتجاوب ولو بقدر مع هذا التراث، ويكون ذلك بعض دور العارفين المتخصصين في هذا التراث بخلق الآصرة بينهم ويكون بتيسير فهمه لهم وتقديمه برؤية جديدة وموقف فكري متميز وإعادة طرحه على الساحة الأدبية. وبذلك يتم للمتخصص وغير المتخصص التعامل مع هذا التراث وتعم الفائدة⁽¹⁴⁾.

الناقد يوسف خليف أيضا وهو يقرأ التراث — خاصة الشعري منه — لا يخفي تأثر الأدب بالعوامل المؤثرة المحيطة به وقد كانت دراساته حول الشاعر ذي الرمة شاعر الحب والصحراء، والحب المثالي عند العرب وشعر الصعاليك في العصر الجاهلي .. وغيرها. مرآة لهاته التوجهات في النقد، ولعلّ دراسته لشعر الصعاليك تعتبر قراءة نقدية رائدة أبرز فيها بعض ملامح منهجه النقدي؛ فهو بعد أن يضع القارئ في البيئة العامة ومقومات الحياة المحيطة بالشاعر، ينطلق إلى تسخير آليات بعض نتائج الدراسات التي أقيمت في علم النفس وعلم الاجتماع والتي ارتبطت ببعض دوافع الانشقاق عن الجماعة والتمرد عليها واختيار الاغتراب ومنطق الرفض لدى البعض لإبداء رفض ما هو قائم واختيار بدائل ولو كانت نقمة وثورة على ما هو موجود. ويحاول خليف تطبيق بعض ذلك على واقع الشعراء الصعاليك للخروج

في الأخير بنتائج تبرز بعض خصوصيات هؤلاء وتفردهم، ثم يشرع في مرحلة ثانية في استقصاء المادة النصية والشروع في تحليلها في ضوء ما تم استقراءه من مرويّات وأخبار؛ ويبدأها بالحديث عن مجموعة من المستويات المرتبطة بالصلوك كالإبانة عن المستوى الاقتصادي والاجتماعي والإبانة عن المستوى الأخلاقي والمعرفي ليجعلنا نقرأ الصلوك من خلال التصورات التي يوردها في نصوصه، وتأتي الفنية بعد كل ما تمّ تناوله، وينكر يوسف خليف الابتعاد عن التكلّف والتصنّع والافتعال في أشعارهم ويرى أن التجاء جلّهم لاختيار المقطوعات ربما ناسبت واقع حياتهم التي كان يميّزها المسارعة إلى الفرار قصد النجاة مما يفسّر مجيء المقطوعات كاللمح الخاطف التي تتناسب مع وقع تلك الحياة.

حاول يوسف خليف المزاوجة بين المنهجين العلمي والفني⁽¹⁶⁾ من خلال إيرادته للمادة العلمية وشفعها بالدليل الوافي والشواهد الشعرية المناسبة صادرا عن خط علمي يتواصل مع الظواهر ويوصل لها مركزا على دور البيئة والعصر والجنس في إنتاج شخصية الشعراء ونتائجهم الفنية، وهو لم يشذ بذلك عن المنهج الذي بدأه أستاذه طه حسين الذي تأثر فيه بـ (هيوليت تين) و(برونتيير) وقد امتاز منهج خليف بتحرّري الموضوعية خاصّة عند درس الجوانب التاريخية، كما كان حظ الذوق النقدي وانتقاء المادة الشعرية علامة مميّزة للناقد أبرز من خلالها توجهه الخاص لقراءة التراث.

ساد الاهتمام منذ القلم بدراسة لغة النص، وقد هدف ذروه إلى (تنمية لغة الأدباء والنهوض بأساليبهم، وإمدادهم بما يحسن من الألفاظ والعبارات، مع تبنيهم على مناسبة كل لفظ، والمقام الذي يقال فيه كل تعبير)⁽¹⁷⁾.

واشتغلت كثير من الدراسات والقراءات النقدية الحديثة بالنص التراثي وبنيته ولغته ونظامه ونسقه، وربما كانت أحيانا ردّا ومقابلة لبعض الدراسات السياقية التي كان النص التراثي ضحيّة لها، وفي أحيان كثيرة نوعا من التعايش بين السياق والنسق

وثنائية الاهتمام باللفظ والمعنى الذي كان قائما منذ القدم وتناوله بإسهاب وحدة التراث النقدي القديم.

الناقد محمود الربيعي ناقد نال منه الاهتمام بالتراث ما نال، وكان نصيب الشعر الحديث معه أيضا وافرا، لكن أدواته النقدية إزاء الإبداع الشعري لم تتغير، والهدف — عنده — من قراءة (الشعر قراءة حسنة أن نتمتع بمتعة جادة واعية تجعلنا أكثر فهما لأنفسنا، ومن ثم أكثر وعيا بالحياة من حولنا وأكثر سيطرة عليها، ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نوفّر لأنفسنا هذا النوع من المتعة بقراءة الشعر إلا إذا فهمناه. وفهم الشعر ليس مسألة هيّنة، ومن السهل — ولكنه من الخطر — أن نزعّم لأنفسنا أننا فهمناه، ونكون في الحقيقة أبعد ما نكون عن الفهم الصحيح. وأسباب فهم الشعر فهما صحيحا كثيرة⁽²⁰⁾.

وفهم الشعر يتم بقراءته، والقراءة تكون بتناول النص من خلال ملاحظة عباراته وتردّدها في النص وكذا ترددات الصّوت، والحديث عن قنوات الاتصال اللغوي والمعادلات اللغوية وبعض الطرق الصوتية التي تمت بها المعاني التي تتبّع من تركيبها الفنّي واستغراق في فنه⁽¹⁹⁾ وإدراك بعض هذا الفن يكون باستقراء بعض وحداته التركيبية وصوره وبنياته المشكّلة له، وكذا تحليل رموزه وإشاراته بقدر من التأويل والحجاز⁽²⁰⁾. ومحاولات إدراك بعض المعادلات الموضوعية الموجودة بين بعض الصور الذهنية المجردة وغير المجردة وما يقابلها في عالم الجمادات والكائنات، ويحاولون تجاوز المعنى الحرفي المتصل بالأشياء إلى الحديث عن طغيان العناصر الإيحائية والرمزية.

الناقد "محمود الربيعي" ضد فكرة أن يتعامل مع الفنّ الشعري على أساس تبسيطه انطلاقا من كونه فناً معقّدا، ولكن الأهم منه أولا (أن نكشف عن عناصره المتشابكة المعقدة لا أن نحوله إلى نثر بسيط أو عامية هابطة، وثانيا ألا يقف الناقد بين القصيدة وبين المتلقّي، وإنما يكون صديقا له يأخذ بيده، ويرحّلان معا فيها، فيتعرفان — على

قدم المساواة — على عالمها وصفاتها وجزئياتها وطريقة عمل هذه الجزئيات وسر تركيبها، وفعاليتها⁽²¹⁾.

وهذا النمط من الدراسات والقراءات للمتون التراثية الشعرية كثيرا ما ركزت على النظرة الوصفية والإحصاء العددي الصرف للأبيات، وكذا البحث في هندستها ونسيجها وتركيبها للوقوف من خلال ذلك على العصب الأساسي الذي تعود إليه شتى الأعصاب الفرعية⁽²²⁾. و"الربيعي" وهو يدرس قصيدة جاهلية وينظر فيها يقدم قراءة نقدية يبرز فيها أن من حق القصيدة (علينا أن ننظر فيها نظرة جديدة، من حيث كونها قوالب لغوية تعبر عن معان بعينها، وتعادل مشاعر إنسانية بعينها، وتبني رموزا بعينها)⁽²³⁾.

ذات القناعات النقدية التي ينطلق منها الناقد عند تعامله مع النص الجاهلي يسقطه على شعر المتنبي في دراسته عن "روعة الاقتراب من شعر المتنبي"⁽²⁴⁾، ويدعو إلى إعادة قراءة المتنبي بفحص بناء قصائده، وقال أن المتنبي مثالا عندما يرثي "خولة" أخت سيف الدولة في قصيدة من عيون الشعر العربي. استطاع أن يسحر مشاعر الملايين من الناس ويجعلهم يعجبون بشعره، وذلك ليس مردّه إلى المضمون الشعري الذي تحمله ولكن مردّه إلى التكوين الشعري للقصيدة، لذلك يدعو "الربيعي" إلى مواجهة القصيدة ليس كدلالة لوقوع حبّ بين المتنبي والمرأة التي يرثيها ولكن من حيث هي أبنية شعرية تستدعي التعرف على بنائها ونسيجها.

الناقد "كمال أبو ديب" أيضا دعا إلى اتباع المنهج البنيوي ودراسة مستويات البنيات المختلفة للنص بشكل عام والتراثي بشكل أدق، ورأى أن تضافر تجسيد دراسة المستويات المختلفة للنص يؤدي بنا إلى إدراك البنية الأساسية العامة للنص التراثي، كما يرى أيضا أن الاستفادة من الدراسة النظرية المرتبطة بالبنوية والإحاطة بها تكفل للناقد إدراك كثير من التطورات الفكرية والفلسفية التي لها علاقة بجوهر النص، ومتى استطاع الناقد فعل ذلك أمكنه إدراك البنى السطحية والعميقة للمتن

الشعري وأقام إضاءات على ذلك التراث الفكري والفلسفي واللغوي العام (25). وأبو ديب يدعو إلى تحديث وتأصيل آليات التعامل مع النص التراثي بإتباع المنهج النبوي لأن بها تدرك المعاني والدلالات والتفاعلات البنيوية القائمة في النص، والتي قد تبدو في ظاهر الأمر خافية غير متجلية، ولكن إصرار الناقد على إظهارها يجعله تتجلى وتبرز ويجعل كيان النص ينطق عن نفسه ويبرز ما يضم.

ولكن المغالاة في التركيز على البنية ووسائطها حول القصيدة لدى دعاة هذا الاتجاه إلى شبه رياضيات فنية أو كيمياء شعورية — كما يحلو للبعض تسميتها — وغدا الولوج إلى عوالم النص واكتشاف بعض عتباته ومضامينه نوعا من التحليل المخبري والإحصاء العددي، حاول ذووه — من خلاله — اكتشاف بعض جماليات النص وخلق آصرة وشيجة مع النص والمتلقي في آن من خلال السعي لإدماجه مع في قراءة النص قراءة جديدة لم يألفها في الدراسات السياقية التي تناولت النص الشعري التراثي ولكن هاته المحاولات لتجاوز نمطية السياق جعلت النص مرة أخرى يفقد صلته بناصره، وراحت هذه القراءات النقدية تمعن في إهمال السياقات المحيط بالنص والتي يمكن أن تكون قناديلا لإضاءة كثير من جنبات النص والجماليات التي يشملها.

واتجاه السياق حيننا لتناول المادة التراثية وتنازعه مع النسق في أحيان كثير واكتفائه في جل الدراسات بتناول التراث الشعري والوصول إلى تشابه في الطرز والنتائج، وكذا تشابه التعاملات الخارجية مع النصوص واعتبار النصوص القلدة خاصة الجاهلية منها وثائق تبريرية لأطروحات سياقية (26)، وكذا تلكا الاتجاه النسق في كثير من الأحيان وعدم قدرته على الإقرار أن الأدب أيضا تجربة شخصية ذاتية، الصعوبة قياسها أو إصدار أحكام علمية متطابقة أو متشابهة، ذلك وغيره جعل النقاد يرضخ إلى تشجيع كل محاولة اجتهد لإنصاف النص التراثي، لأنه أدرك أن النص الجاهلي والقديم بشكل عام يحمل (رسالة ذات شفرات غير محددة تحديدا يقينيا،

هو نص يخترق الزمن ليعيش في اللازمان، وأن أصالته نابعة من تفتحه لكل قراءة جادة تحاول أن تتعامل مع خطابه الشعري بأدوات فيها من الجدة والأصالة لتفك شفراته دون السقوط في المعيارية⁽²⁷⁾. هذا لا يتأتى إلا بالاستعانة بحسنات الذين اهتموا بالنص وسياقاته ويزيدون عليه بما تمّ من دراسات وقراءات خدمت النص وأنصفت محتوياته، وبذلك نكون قد خطونا خطوات لإعادة قراءة تراثنا الشعري في ضوء تآلف مجموعة من النظريات ، سيسهم تلاحمها وحسن تسخير مضامينها التنظيرية وتطبيقاتها لحسن التعامل المنصف مع المتون التراثية وإبراز الكثير من أسرارها.

الهوامش :

- 1— ينظر : صلاح فضل : في النقد الأدبي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، سوريا 2007 ، ص71 وما بعدها.
- 2— ينظر : عبد الجليل مرتاض: في عالم النص والقراءة ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 2007، ص83 وما بعدها.
- 3— عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب (نحو بديل ألسني في نقد الأدب)، تونس 1977، ص84 وما بعدها.
- 4— للمزيد انظر: يوسف نور عوض: الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين ، دار القلم ، بيروت ، لبنان (د.ت)، ص7 وما بعدها.
- 5— المرجع نفسه : ص100 وما بعدها .
- 6— محمد زغلول سلام : النقد العربي الحديث (أصوله ، قضاياها ، مناهجه) مكتبة الأنجلو المصرية (د.ت)، ص269.
- 7— يوسف نور عوض: الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، ص103.
- 8— محمد زغلول سلام: النقد العربي الحديث (أصوله، قضاياها ، مناهجه)، ص269 وما بعدها.
- 9— للمزيد انظر : المرجع نفسه، ص271 وما بعدها.
- 10— للمزيد انظر : مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1981، ص7 وما بعدها.

- 11— مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت 1995، ص 247 وما بعدها.
12. جابر عصفور: غواية التراث، كتاب العربي (العدد 62)، وزارة الإعلام، الكويت، 2005، ص 6.
- 13— محمد مندور : في الأدب والنقد، دار النهضة ، مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص 151.
- 14— ينظر محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، ص 17 وما بعدها .
- 15— ينظر : يوسف خليف: أوراق في الشعر ونقده، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، (د.ت)، ص 33 وما بعدها.
- 16— المرجع نفسه ، ص 177 وما بعدها.
- 17— للمزيد انظر : المرجع نفسه، ص 7 وما بعدها.
- 18— العزاوي نعمة رحيم : النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، وزارة الثقافة والفنون، بغداد 1978، ص 69.
- 19— محمد الربيعي : قراءة الشعر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1977، ص 13.
- 20— ينظر المرجع نفسه ، ص 26 وما بعدها .
- 21— ينظر المرجع نفسه ، ص 37 وما بعدها.
- 22— ينظر المرجع نفسه ، ص 42 وما بعدها.
- 23— المرجع نفسه (مبحث: نظرة في قصيدة جاهلية)، ص 234 وما بعدها.
- 24— ينظر المرجع نفسه ، ص 246.
- 25— ينظر المرجع نفسه، ص 247 وما بعدها.
- 26— للمزيد انظر: كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت ط2، 1981، ص 11 وما بعدها
- 27— محمد بلوحي : الخطاب النقدي العربي الحديث في مقارنة الشعر الجاهلي (بحث في تجليات القراءة السياقية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 185 وما بعدها.
- 27— المرجع نفسه ، ص 12.